٦٢٩
٢٠١٦/٤/١١

أفكار غيَّرت العالم

١٨

# جمال عبد الناصر

## القائد

بقلم :
د. منال القاضى

دار المعارف
تأسست ١٨٩٠

دار المعارف
تأسست ١٨٩٠

رئيس مجلس الإدارة

**سعيد عبده مصطفى**

**كتب أطفال وناشئة**

**سلسلة أفكار غيرت العالم**

تصميم الغلاف:

**غادة نبيل**

تم التنفيذ بمركز زايد للنشر الإلكتروني
بدار المعارف - ١١١٩ كورنيش النيل -
القاهرة - جمهورية مصر العربية

القاضى، منال.

جمال عبد الناصر القائد/ بقلم: منال القاضى.

القاهرة: دار المعارف، 2016.

24 ص، 19.5 سم (أفكار غيرت العالم، 18)

تدمك 5 8303 02 977 978

1 - مصر - تاريخ - العصر الحديث - جمال عبد الناصر (1954 - 1970م).

(أ) العنوان.

تصنيف ديوى: 962.063

رقم الإيداع: 2466/ 2016

رقم أمر التشغيل: 25/ 2015/ 7

رقم الكونجرس: 7 - 840017 - 01 - 2

لا يجوز استنساخ أى جزء من هذا الكتاب بأى طريقة كانت إلا بعد الحصول على تصريح كتابى من دار المعارف.

**الناشر : دار المعارف - ١١١٩ كورنيش النيل - القاهرة ج. م. ع.**

هاتف: ٢٥٧٧٧٠٧٧ - فاكس: ٢٥٧٤٤٩٩٩ E-mail: maaref@idsc.net.eg

## من هو جمال عبد الناصر؟

- وُلِدَ عام ١٩١٨م.
- هو المؤسِّسُ لحركةِ الضُّباطِ الأحرارِ الَّتى أدَّتْ إلى ثورةِ ١٩٥٢م وأدَّتْ إلى التَّخلصِ من الْفسادِ.
- كانَ مُؤْمنًا بالقوميَّةِ الْعربيَّةِ وفى عهدِه أُقيمَ اتِّحادٌ بينَ مصرَ وسوريا.
- أُنشِئَ فى عهدِهِ عددٌ من الْمشروعاتِ الكبرى مثل السَّدِّ الْعالى، وهوَ مشروعٌ قوميٌّ التفَ حوْلَه المصريون واعْتبروه هدفًا.
- ساندَ حركاتِ التَّحرُّرِ فى العالمِ الْعربىِّ وخاصةً فى الجزائر والمغربِ.
- ساهمَ فى تحريرِ الدُّول الأفريقيَّةِ، فقد كانت اللَّجنةُ الأفريقيَّةُ التى اتَّخذتْ من مصرِ مقرًّا مركزَ تفريخ الْقياداتِ الأفريقيَّة الَّتى أدَّتْ إلى تحرُّرِ أكثر من دولةٍ أفريقيَّةٍ فى عهدِه.
- حين حدثتْ هزيمةُ حرب يونيو ١٩٦٧م تحمَّلَ الْمسئوليةَ كاملةً وتنحَّى عن منصبه كرئيسٍ للجمهورية، وهو ما رفَضَه الشَّعبُ.

- تمَّ اعادةُ بناءِ الجيشِ فى عهدهِ وكانتْ حرب الاسْتنزافِ.
- تُوفى عام ١٩٧٠م.

## منْ أقوال جمال عبد الناصر المأثورة:

- الَّذى لا يستطيعُ إعالةَ نفسهِ لا يستطيعُ اتِّخاذَ قرارٍ بنفسِه.
- الخائفـونَ لا يصنعونَ الحريَّةَ والْمتـردِدُونَ لن تقوى أيديهم المرتعِشةُ على البْناءِ.

نَظَرَ رئيسُ لجنةِ كشفِ الْهيئةِ بالكلِّيَّةِ الْحربيَّةِ إلى الفتى الأسْمر الْواقفِ أمامَه، واستمرَّ فى الأسْئلةِ.

وكانتِ الإجاباتُ تُشْعرُه بدهشةٍ من جرْأتِه.

ليسَ ابنَ حَسَبٍ ونَسَبٍ ولا وساطةَ، لا أرضَ ولا أملاكَ، أبوه موظفٌ بسيطٌ فى هيئةِ البريدِ، ومع ذلكَ يتقدَّمُ للالتحاقِ بالكليَّة الحربيَّةِ، سألَ: «ما اسمُك؟».

أجابَ الفتى بثباتٍ: «جَمال عبدُ النَّاصر».

يقولُ: «قلتَ لا ضباطَ بعائلتِكَ؟».

أجابَ جمال: «لا»

أرادَ رئيسُ اللجنةِ أن يسألَه مَا هى مؤهلاتُك إذن؟ كيفَ تجرؤُ على هذهِ الخطوةِ، وأراد جمالُ عبدَ النَّاصر أن يجيبَ:

«أنا مصرىٌّ محبٌّ لبلدِه، ألا يكفى هذا كى ألتحق بالجيش؟!».

عادَ رئيسُ اللجنة يسأله، وشعرَ بعينىْ «جمال عبدِ النَّاصر» تَنْغرزان داخلَه، سرتْ داخلَه رجْفةٌ، إنَّه شابٌّ صغيرٌ ولكنَّه بالغُ الجرأةِ، لا يعرفُ مكانَة.. سيكبرُ وُتعلِّمُه الحياةُ أن يلزمَ حدودَه ولا يطمع فيما ليس لهَ، ولكن عينيْه ثاقبتان وثقتهُ بنفسهِ مُدْهشة.

قالَ رئيسُ اللجنةِ للشَّاب الصَّغيرِ:

«تفضلْ».

لم يشعرْ «جمالُ عبدُ النَّاصرِ» أنَّه فى المكانِ الخطأ، أو أنَّه تجاوزَ بتقدُّمهِ للكليَّةِ الحربيَّةِ، أبوه من قرية بنى مُرٍّ، يعملُ موظفًا صغيرًا بالبريدِ، ولكنَّه رجلٌ شريفٌ ومكافحٌ.

ليس لديهم أملاكٌ ولا ألقابٌ ولا يمتُّ للكبارِ بصلةٍ ولكنِّه مصرىٌ حتَّى النخاعِ ومن حقِّه أن يلتحقَ بجيشِ وطنِهِ.

نجحَ فى الكشفِ الطِّبى واللياقةِ ولكنَّه لم ينجحْ فى كشفِ الهيئةِ، ولم يفهمْ ما يعيبُه، فهوَ من أسرةٍ مصريَّةٍ تشُبهُ آلافَ الأسرِ، دفعتهْ إلى التَّعليم كىْ ينالَ مستقبلًا أفضلَ.

شعرَ بالمرارةِ، فمجموعةٌ من المنتفعينَ تقتلُ أحلامَ المصريينَ، وتجعلُ من مصرَ بلداً يلفظ أبناءَه.. فكَّر:

«إنَّهم يريدونَ أن نشعرَ بالغربةِ فى الوطنِ».

ماذا أمامَه الآن؟! سيأكلُه اليأس كما أكلَ آخرين، وَستخْلُصُ أرضُ النيلِ فى النهايةِ للفاسدين الَّذين لا يستحقونَ الانتماءَ إليها، والتَّمتع بشمسها وهوائِها، انتفضَ «جمال» لهذه الفكرةِ وتمتمَ:

«فداكِ يا مصرُ»..

وعلتْ وجهَه ابتْسامةٌ، لن يستسلمَ، سيعيدُ هو وشبابُ الوطنِ رسمَ الصُّورةِ، ستصيرُ مصرُ يومًا ما الوطَن الَّذى تَمَنَّوْه.

* * *

لقد ساهمتِ الْمظاهراتُ الطلابيَّة الَّتى كان « جمال عبد الناصر» أحدَ زعمائها عام ١٩٣٥م فى إعادةِ الحياةِ الدستوريةِ فى مصرَ.

فقد أعلن وزيرُ خارجيةِ بريطانيا أن دستور ١٩٢٣م الَّذى تم إلغاؤه لن يعودَ، ومعنى ذلك لا قانونَ ولا حقوقَ للمصريين، وأن كلمة الإنجليز ستظلُّ العليا فى مصرَ.

قالَ «جمالُ عبدِ الناصرِ» لزملائهِ من طلبةِ مدرسة النَّهضةِ:

«لنْ نقْبلَ بذلكَ، نحنُ أصْحابُ الْبلدِ ونريدُ عودةَ دستورِ ١٩٢٣م، ولا بدَّ أن يخضعَ الإنجليزُ وأعوانُهم لإرادتِنا».

تذكَّر «عبدُ الناصرِ» فورَ خروجهِ من امْتحان الكليَّة الحربيةِ أرواحَ الشُّهداءِ فى تلكَ المظاهراتِ، بعِصىِّ الإنْجليز ورصاصِهم، وأيضًا حين مرَّت الْمظاهرة بكوبرى الملكِ الصَّالح، حيثُ أمر الإنجليزِ بفتح الكوبرى، فسقطَ من سقطَ فى النِّيلِ.

وجـوهٌ يعرفُهـا وأخرى لا يعرفُهـا، تقدَّموا بشـجاعةٍ، فى مواجهةِ الإنجليز.

أزاحـت تلكَ الذِّكرياتُ المرارةَ من نفسِ «جمال عبد الناصر»، لقـدِ انْتصـرتِ الْإرادة الشَّـعبيةُ، وعـادَ العمـلُ بالدُّسـتورِ فى ١٢ ديسمبر ١٩٣٥م.

تجـوَّلَ «عبدُ الناصرِ» فى شـوارعِ القاهرةِ الخاويةِ، وتنسَّـمَ الهـواءَ العليـلَ، واثقـاً فى مسـتقبلٍ أفضلَ، وأنَّ مصرَ سـتعودُ لأبنائِها.

التْحَقَ «جمالُ عبد الناصر» بكليةِ الحقوقِ.

ما هـى إلَّا برهةٌ وأُبرمـتْ معاهدة ١٩٣٦م، وطلبـتِ الْكليَّةُ الحربيـة دفعةً جديـدةً للالتحاقِ بها، وتـمَّ التَّغاضى عن الوضعِ الاجتماعىِّ للطلابِ.

قُبِـلَ «جمالُ عبـد النَّاصر» فـى مـارس ١٩٣٧م وتخرَّجَ فى عام ١٩٣٨م.

لم يصدِّقْ نفسَه لقد صارَ أخيرًا ضابطًا فى الجيشِ المصرىِّ، إنَّه حُلْـمٌ، ولكن حُلْمه الأكبرَ هو حصولُ مصرَ على اسـتقلالِها. كان يُتابعُ عملَهُ بإخلاصٍ، خدَم فى عدةِ مواقع مثل أسيوط والسُّودان، وعملَ بالتدريسِ فى الكليَّة الحربيةِ عام ١٩٤٣م.

ولكنَّه كان يقرأُ الأحداثَ ويدركُ أن الخلاصَ قريبٌ.

* * *

فتحَ « عبدُ النَّاصر» نافذةَ غرفتِهِ، وتطلَّعَ إلى النُّجومِ، لسعتْه نسمةٌ صيفيَّةٌ.

اقتربتْ منه زوجتُه «تحية»:

«فيمَ تفكِّر؟».

نظرَ إليها، فرأتْ حزناً يكسو ملامِحَه، قال:

«لا شيءَ»..

قالتْ:

«ألمحُ فى عينيْك ألمًا»..

قال بنبرةٍ رقيقةٍ، كأنَّما يستحضرُ صورةً باهتةً من عالمٍ بعيدٍ:

«فقط تذكَّرتُ أمى، صوتُها ولمسةُ يديْها، ولكن صورتَها بعيدةٌ»

سكتتْ «تحيَّة» فاسْترسلَ:

«كنتُ عائدًا من السَّفرِ فى الإجازةِ الصَّيفيةِ، كنتُ فى ذلكَ الوقتِ مقيمًا عندَ عمى فى الجماليَّة، أو صلنى إلى المحطَّة، وقبَّلنى وقالَ: انْتبه إلى نفسِكَ، وكان صوتُه مشروخًا وفى عينيْه

سـرٌّ، ولكنِّى لم أهتـمْ، الإجازةُ بدأتْ وماهى إلَّا سـاعاتٌ وأصلُ لتدللَنى أمِّى، كنتُ ولدًا صغيرًا يشـتاقُ إلـى اللعبِ وحضنِ أمِّهِ، وكان أبـى ينتظرُنى واصْطحبنى إلى البيتِ فتشـتُ عنها فى كلِّ غـرفِ البيتِ، لم أجدْها.. هناك حـزنٌ ودموعٌ، لقد رحلتْ ولن تعودَ، ولكنى أبقيها فى قلبى وأذكرُها دائماً».

ضغطتْ « تحية» على كفيْه، فقالَ:

«فيكِ شىءٌ منْها يا تحية».

ابتسمتْ وشعرتْ بالخجلِ، حاولتْ تغييرَ الموضوعِ:

«العشاءُ جاهزٌ».

فقال «عبد الناصر»:

«سأسافرُ غدًا إلى فلسطين».

حاولتْ« تحية» أن تُخْفِىَ خوفَها:

«لقد تزوجتُ من بطلٍ».

قاطعها، قائلا:

«لا تقلقى سـأعودُ سريعًا وقد تحرَّرتْ فلسطين من الصَّهاينة، إنَّه واجبُ كلِّ عربىٍّ أن يحاربَ من أجلِ فلسطين».

عَقِبَ الْعشاءِ اخْتلى «عبد الناصر» بنفسهِ وأخذَ يفكِّرُ.

«إن قيامَ دولةٍ يهوديَّة على أرضٍ عربيةٍ كانَ مجردَ فكرةٍ، فقد نشرَ «هيرتزل» كتابَه الَّذى يدعو إلى قيام دولةٍ يهوديَّة عام ١٨٩٦م وكان اسمهُ «الدولةُ اليهوديَّة». وقالَ إنَّها ستكون درعًا لأوروبا ضَد آسيا وستكونُ مركزًا للحضارةِ، على اعتبارِ أن العربَ هم مجموعةٌ من الهمَجِ.

ثم قَطَعَ «بلفور» وعدًا بقيام دولةٍ يهوديَّة عام ١٩١٧م، وها هى بريطانيا تقرِّرُ إنْهاءَ الحمايةِ البريطانيَّة على فلسطين، ويعلنُ «بن جوريون» عزمَه على إقامةِ دولةٍ يهوديَّةٍ، ثم تعلنُ إنجلترا فى نوفمبر ١٩٤٧م قرارَ تقسيمِ فلسطينَ إلى قطاعٍ عربيٍّ وآخر يهوديٍّ على أن تكونَ القدسُ تحتَ إشرافٍ دوليٍّ كما تعلنُ انْتهاءَ الحمايةِ البريطانيَّة على فلسطين يوم ١٤ مايو ١٩٤٨م ويعلنُ قيامُ الدولةِ اليهوديَّة بالفعِل يوم ١٥ مايو ١٩٤٨م» .

طمأنَ «عبدُ النَّاصرِ» نفسَه:

«لا.. لا يمكنُ أن يحدثَ هذا، لقد اعترفتْ أمريكا بالدولةِ اليهوديةِ، بعدَ الإعلان عنها بإحْدى عشرةَ دقيقةً، ولكن الأمرَ لم

ينتـــهِ بعدُ، ها هو الجيش المصرىُّ والعديدُ من الجيوشِ العربيَّةِ فى طريقِهم إلى هناكَ، لا بدَّ من إيقافِ هذهِ الْمهزَلةِ».

شـــعرَ «عبدُ الناصر» بالنُّعاسِ، لا بدَّ أن ينالَ قســطاً من النوم فالســفرُ غــداً، كان مرتاحًــا إلى تلــك النتيجــة، ومفادها: إن ما يحدثُ فى فلسطين هو أمرٌ هيِّنٌ، ولن يستغرقَ الأمرُ كثيراً من الوقتِ، وستعودُ الأرضُ العربيَّةُ إلى أصحابِها.

* * *

بدأتِ الْحربُ بين العربِ واليهودِ عام ١٩٤٨م، وكلَّما مرَّ الوقتُ كان «عبد الناصرِ» يتأكَّد أن النَّوايا الطيبةَ لا تكفى لإحرازِ النَّصرِ.

كانــتِ القيــاداتُ العربيةُ تتحــرَّكُ دونَ تنســيق بينها.. أمَّا الجيــشُ المصرىُّ فقد وقَعَ ضحيةَ جشــعِ الخونــةِ، الَّذين أمدوه بالسلاح الفاسدِ، ليكدســوا الأموالَ فى حساباتِهم الخاصَّة، غير آبهينَ بدماءِ الشُّهداءِ الطاهرةِ.

ثــم تمَّ حصارُ الجيشِ المصرىِّ فى منطقــة الفالوجا الَّتى تبعدُ عن غــزةَ بنحوِ ٣٠ كيلو مترا، كان «عبــد الناصر» يقودُ الكتيبةَ السَّادســة مشــاة، وقد حُوصرَ معه مجموعةٌ من الضَّباطِ الأحرارِ. الَّذين اتَّفقوا معه أن الأوضاعَ تتَّجه من سيئٍ إلى أسوأ.

كانوا يجتمعونَ ويتبادلونَ الهمساتِ الغاضبةِ:

«الفسادُ حوَّل مسارَ المعركةِ يا جمالُ».

يومئُ «جمالُ» ويقولُ فى مرارةٍ:

«لا تهمُّ فلسطين ولا هزيمةُ الجيشِ المصرىِّ بالنسبةِ للملكِ وأعوانِهِ لقد كنتُ أتنقَّلُ بينَ الجنودِ منذ لحظاتٍ، إنَّهم مصممونَ على الصمودِ، قالَ لى أحدُهم: الشَّهادةُ أو النَّصرُ»

شعرَ «عبد الناصرِ» بغُصَّةٍ وصمتَ كان اليهودُ يفوقونَهم عُدَّةً وعتادًا، سأله أحدُهم:

«فيمَ تفكرُ؟»

رد «جمال» منفعلًا:

«أفكر فى الخونة الَّذين استهانوا بكرامةِ الجندىِّ المصرىِّ، إذن فلا أملَ لنا ولمصرنا إلَّا فى تنظيمِنا، تنظيمِ الضُّباطِ الأحرارِ».

انْتهى حصارُ الفالوجا والحربُ، بهدنةٍ بين اليهودِ والعربِ فى فبراير ١٩٤٩م. عادَ «عبدُ الناصرِ» إلى أرضِ الوطنِ، وُجْرحُ الهزيمةِ داخِلَه، يَنْزفُ فى صمتٍ، كان يتطلَّعُ إلى علاجٍ جذرىٍ لألمِه.

* * *

بدأَ «عبدُ الناصر» فى تشكيلِ تنظيمِ الضُّباطِ الأحرارِ عام ١٩٤٥م، وانضمَّ إليه العديدُ من الضباطِ الوطنيين الراغبينَ فى التَّغييرِ مثل أنور السادات، خالد محيى الدين، يوسف صديق، عبد الحكيم عامر ومعهم آخرونَ.

إنَّهم يجتمعونَ الآنَ لمناقشةِ أحوالِ مصرَ، وذلكَ فى إحْدى الليالى الباردةِ من شهر يناير ١٩٥٢م.

يقولُ «خالد محيى الدين»:

«فسادُ الحاشيةِ والملكِ سببُ كلِّ نكبةٍ حلَّتْ بالبلادِ».

يوافقُه «عبدُ النَّاصر» قائلًا.

«وأيضًا فسادُ رجالِ الحكمِ المنتفعينَ من الوضعِ الحالى».

يصرُّ «يوسف صديق»:

«لن نسكتَ».

يؤكدُ له «عبد النَّاصر»:

«بالطَّبع لن نسكتَ يا يوسف»

يصمتُ «عبدُ الناصر»، ويبدو مستغرقًا فى التفكير، فى وجوه المصريينَ البسطاءِ الَّذين يلتقى بهم كلَّ يومٍ، فهى تتوالى أمامَه

وتحثُّه على أن يفعلَ شـيئًا، فلا يليـقُ بأحفادِ الفراعنةِ وأصحابِ الحضارةِ الْعريقةِ، أن يعيشوا عبيدًا فى وطنِهم.

يدخلُ أحدُ أعضاءِ التَّنظيم وهو يلهثُ:

«هلْ عَلمتم بِمَا حدثَ؟».

ينتبهُ «عبدُ النَّاصر» والآخرونَ، فيقول كأنَّه يَرْوى كابوسًا:

«القاهرةُ تَحْترقُ».

سادَ الْوجومُ، وأطرقَ «عبدُ الناصر» بينما استفسَر آخرونَ:

«من فعلَها... من فعلَها؟».

ولا إجابةَ.

يـوم ٢٦ يناير ١٩٢٥م .. لا بدَّ أنَّ كثيراً من البسـطاءِ أحسـوا بالعجز وهم يشاهدونَ الدُّخانَ الأسـودَ يصنعُ مِظلةً كثيفةً خانقةً فى سماءِ القاهرةِ، كثيرونَ بَكَوْا وكثيرونَ لعنوا الفسادَ والإنجليزَ والملـكَ، عمالٌ وفلاحونَ وموظفـونَ تغلَّبوا على خوفِهم وتبادلوا كلمـاتٍ فيما بينهم مُنددِّينَ بما آل إليه حالُهم، وما أوصلُهم إليه الصَّمتُ والمشى بجانبِ «الحيط».

رأى «عبدُ الناصر» وسَمِعَ، ورسخ داخلَه، أنَّ التَّغيير آتٍ وهذا وقتُه.

***

استيقظتْ مصرُ صباحَ ٢٣ يوليو ١٩٥٢م، غيرَ مُصَدِّقةٍ لمَا يحدثُ.

سرتْ همهمةٌ، عَلت الابْتساماتُ الوجوهَ، ولكن كثيرينَ أبدَوْا حذرَهم، إنَّ ما يحدثُ حُلْم.

يسألُ أحدَهم جارَه: «هلْ أنت واثقٌ يا حاج مِمَّا تقولُ؟».

يجيبُ: «كما أراكَ».

يسألُه: «ماذا أذاعَ الرَّاديو؟».

يُكرِّرُ: «بيانٌ من الجيشِ، يقولُ إنَّهم سيقضونَ على الفسادِ».

يخبطُ كفًّا بكفٍّ، قائلا: «ياريت يا حاج ياريت».

كان البكباشي «محمد أنور السادات»، قد ألقى بيانَ الثَّورةِ من الإذاعةِ المصريَّة، فى السَّابعةِ والنِّصف صباحًا من يوم ٢٣ يوليو، بعدها توالتِ الأحداثُ، أعلنَ الضُّباطُ الأحرارُ مطالبَهم وتركَّزت فى ستِّ نقاطٍ: القضاءِ على الاستعمارِ، إقامة جيشٍ وطنيٍّ قويٍّ، القضاءِ على الاقطاعِ، القضاء على سيطرةِ رأسِ المالِ، تحْقيق عدالةٍ اجتماعيَّةٍ، تحقيقِ حياةٍ ديموقراطيةٍ سليمةٍ.

يوم ٢٦ يوليو يستجيبُ الملكُ «فاروق» لإنذارِ مجلسِ قيادةِ الثَّورةِ ويتنازلُ عنِ الْعرشِ ويغادرُ البلادَ، وتُطْوَى صفحةٌ وتبدأُ صفحةٌ جديدةٌ من تاريخِ الوطنِ.

* * *

فكَّر «جمال عبد الناصر»:

«لسنا فى حاجةٍ إلى باشواتٍ وبهواتٍ، نحنُ فى حاجةٍ إلى كلِّ مواطنٍ مصرىٍّ».

أُلغِيتِ الْألقابُ وصدرَ قانونُ الإصْلاحِ الزِّراعىِّ الَّذى حدَّد الملكيةَ الْقصوى للفردِ بـ ٢٠٠ فدانٍ.

ووقِّعتِ اتِّفاقيةُ الجلاءِ وبدأت تأخذُ حيزَ التَّنفيذِ، ليخرجَ الإنجليزُ من مصرَ بعد احتلالٍ بدأَ سنة ١٨٨٢م.

وبدأَ الْعملُ فى مشروعِ مديريَّةِ التَّحريرِ، وتمَّ توزيعُ أراضٍ زراعيَّةٍ على الْفلاحينَ.

وصارَ للمرأةِ الحقُّ فى التَّصويتِ فى الانْتخاباتِ.

إنَّ شكلَ المجتمعِ يتغَّيرُ ولكنَّ الأحلامَ لا حدَّ لها.

تولَّى «جمالُ عبْدِ النَّاصرِ» رئاسةَ الجمهوريَّةِ عامَ ١٩٥٦م.

وكان هناكَ حلمٌ كبيرٌ يودُّ تحقِيقَه وهو إنْشاء السَّدِّ العالى.

أسرَّ إلى رُفقاءِ الْكفاحِ:

«إنَّ الغربَ يُماطلُ فى تمويلِ هذا المشروعِ الْعملاقِ».

يقولُ أحدُهم:

«لا يريدونَ لِمصْرَ أن تتحرَّرَ اقْتصاديًّا».

يسألونَه:

«ما الْعمَلُ؟».

يفكِّرُ ويقولُ بنبرةٍ هادئةٍ:

«لا بدَّ أن نعتمدَ على أنْفسِنا».

قامَ «عبدُ النَّاصرِ» بتأميمِ قناةِ السِّويسِ يومَ ٢٦ يوليو ١٩٥٦م.

لقد كانتْ ضربةً قويَّة لمصالحِ الْغرْب، وتوقَّعَ الرَّدَّ.

ولكنَّه لم يشعُر بالنَّدم.. فكَّرَ:

« لقد عادتِ الْقناةُ إلى أصحابِها الشَّرعيينَ، الَّذين فقدوا أرْواحَهُم وهُمْ يَحفرونَها، ما فائدةُ الحياةِ دونَ كرامةٍ؟ لماذا نسْتجدى الغربَ من أجلِ تمويلِ السدِّ العالى ولديْنا مواردُنا؟».

ولقد صَدَقَ حَدْسُه، فقامتْ ثلاثُ دولٍ بغزوِ مصرَ هى إنجلترا وفرنسا وإسرائيل، وهو ما سُمِّىَ بالعدوانِ الثُّلاثىِّ على مصرَ.

فَكَّر «عبدُ النَّاصر»:

«إنَّها بدايةُ النِّهايةِ بالنِّسبةِ لفرنسا وإنجلترا».

كانَ «عبدُ الناصر» يتابعُ ما يحدُثُ فى البلديْن، ففى إنجلترا، سقطتِ الْحكومةُ التى يرأسُها «إيدن»، واشْتعلتْ حرَكاتُ التَّحرُّرِ فـى البـلادِ الَّتى تقعُ تحتَ السَّـيطرةِ الفرنسـيَّةِ، وانْشـقَّ عددٌ مـن الجنرالاتِ عن الْحكومةِ الفرنسـيَّةِ، فسـقطتِ الْجمهوريَّةُ الرَّابعةُ، وكان الجنرالُ النَّزيه «ديجول» هو من تولَّى الحكمَ بعد ذلكَ وأعطى دولًا كثيرةً اسْتقلالَها مثل الجزائر وتونس.

فشلَ العدوانُ الثُّلاثىُّ على مصرَ وانسحبتِ الدُّولُ الْمغيرةُ، بعد أن اهْتزتْ صورتُها، وكان فشلُ دولٍ كبرى مثل فرنسا وإنجلترا، فـى غزوِ بلدٍ نام مثل مصـرَ مُلْهمًا لكثيرٍ من الـدُّولِ الرَّاميةِ إلى الحريَّةِ فى آسيا وأفريقيا.

كانَ «عبدُ الناصر» يؤكِّدُ:

«إرادةُ الشُّعوبِ فوقَ كلِّ قوةٍ غاشمةٍ».

كانتْ حكومةُ «عبدِ الناصـرِ» تَدْعمُ وتؤيدُ حركاتِ التَّحررِ فى كلِّ مكانٍ، فقطعتْ علاقتَها الدُّبلوماسيَّة بحكومةِ جنوبِ أفريقيا

العنصريَّة فى ذلكَ الوقتِ، وساندتِ الثَّوراتِ التَّحرريةَ فى الجزائر وتونس والْمغرب، وكانتْ حريصةً على توطيدِ العلاقةِ بالدُّولِ الأفريقيَّةِ، واحتضنتْ شعلةَ الحريَّةِ الوليدةِ فى القارة السَّمراء، الَّتى طمعَ الغربُ فى كُنوزها فى القرنِ التَّاسع عشرَ وقسَّمها إلى مستعمراتٍ، فكانَ مقرُّ الجمعيَّةِ الْوطنيَّةِ الأفريقيَّةِ فى القاهرةِ، حيثُ أُديرَ من خلاله الكثيرُ من عملياتِ الاسْتقلالِ، وبالفعل فقد استقلتْ العديدُ من الدولِ الأفريقيَّة، ورفرفتْ أعلامُ الحريَّةِ فوقَ بلدانِ الْقارةِ الَّتى استيقظتْ وطالبتْ بحقِّها فى حياةٍ كريمةٍ، وساندتْها مصرُ ودعَّمتها، دبلوماسيًّا وماديًّا.

وكانَ «عبدُ الناصرِ» مؤمناً بالقوميَّة العربيَّة، فكانتِ الْوحدةُ العربيَّة بين مصرَ وسوريا فى ٢٢ فبراير ١٩٥٨م وسُمِّيتْ مصرُ وسوريا فى ذلكَ الوقتِ «الجمهوريَّةُ العربيَّةُ الْمتَّحدةُ»، وقد استمرَّتْ هذهِ الوحدةُ نحوَ ثلاث سنواتٍ.

***

جلسَ «عبدُ النَّاصر» فى منزلِه بمنشيَّة الْبكرى يداعبُ أبناءه، وكانتْ زوجتُه تروحُ وتجيءُ وعلى وجهِها ابْتسامةٌ.

وكان «عبد الناصر» سعيداً ففى الغدِ الموافقِ ١٠ يناير ١٩٦٠م، سيتمُّ إطلاقُ شرارةِ البدءِ لبناءِ السَّدِّ العالى.

داعبَ أبناءَه:

«أريدُكم أن تتذكَّروا هذا اليومَ، لقدِ انْتظرنا كثيرًا، وهَا هُوَ الْحلمُ يتحققُ».

وكانت «تحية» تراقبُه، وقالتْ فى رقَّةٍ:

«بالطَّبع سيتذكَّرون، وسيتذكَّر كل مصرىٍّ ما فعلتَه».

يرفعُ «عبدُ النَّاصر» وجهَه قائلا:

«مازال أمامَنا كثيرٌ من العملِ، كَىْ تصيرَ مصرُ كما حلمنا».

تقولُ:

«هلْ أعجبتكَ الفطائرَ الَّتى أعددتُها؟.

يتناولُ واحدةً ويقضمُها فى شغفٍ:

«لذيذةٌ جدًّا».

تمرُّ السَّنواتُ ويتقدَّمُ العملُ فى السَّدِّ العالى، هذا المشروعُ الَّذى التفَّ المصريونَ حولَه، وصاروا يتابعونَه بشغفٍ.

ولكن «عبدَ الناصرِ» والمصريين كان بانتظارِهم جرحٌ كبيرٌ فى يونيو ١٩٦٧م.

كان يومُ الأثنين ٥ يونيو ١٩٦٧م يومًا حزينًا فى التَّاريخ المصرىِّ، لقد شنَّتْ إسرائيلُ هجوماً جويًّا على جميعِ المطاراتِ المصريَّة، وقامتْ بضربِ الطَّائراتِ المصريَّة وهى على الأرضِ.

استخدمتْ إسرائيل فى هذا الهجوم ١٦٤ طائرةً وهى تقريبًا كلُّ الطَّائراتِ المُقاتلةِ الَّتى كانتْ تملكُها فى ذلكَ الوقتِ.

قامتْ بقصفِ المطارات الأربعةِ الموجودةِ فى سيْناء، والمطارات الثلاثة الموجودة بالقناةِ، ومطارَ المنصورةِ.

ثم بعدَ ذلكَ تمَّ تدميرُ مطاراتِ الْقاهرةِ وبنى سويف وبناس والأقْصر تمَّ الهجومُ على مرحلتيْن، كلُّ مرحلةٍ شاركتْ فيها ٨٠ طائرةً إسرائيليَّةً. استغرقَ زمنُ كَلِّ هجمةٍ حوالى ٤٥ دقيقةً.

وقدِ اسْتخدمتِ الْقواتُ الإسرائيليَّةُ العديدَ من الأسلحةِ أثناءَ الهجومِ على المطاراتِ، شملتِ الْقنابلَ والصَّواريخَ والمدافعَ الرَّشاشةَ، وقنابلَ الباراشوت الَّتى اُستُخدمتْ خصيصًا من أجلِ تدميرِ ممرَّات الطائراتِ فى مختلفِ المطاراتِ، وكانتْ أمريكا فى الخلفيةِ تساندُ إسرائيلَ بالعدةِ والعتادِ.

كانَ ما حدثَ فى يونيو ١٩٦٧م، بمثابةِ الصَّدمةِ الَّتى هزَّتِ الْجميعَ، حتَّى الزَّعيم «عبد الناصر» بكلِّ ما أُوتى من ثقةٍ ورباطةِ جأشٍ.

كان يريدُ أن يعلنَ مسئوليتهَ أمامَ الجميع، وأن يكونَ أولَ من يُحاسَبُ ولذلكَ قرَّرَ التَّنحى عن السُّلطةِ، على أن يتولَّى منصبَ رئيسِ الجمهوريةِ «زكريا محيى الدين»، وقدَ أعلنَ قرارَه هذا للشَّعب يوم ٩ يونيو. خرجتِ الْجماهير للشوارعِ معلنةً تمسُّكَها بـ«عبد الناصر»، لم يكن «عبد الناصرِ» مجردَ رئيسٍ، كان زعيمًا شعبيًا.

رضخَ «عبدُ النَّاصرِ» لرغبةِ الشَّعب وخاطبَه بكلماتٍ مؤثرةٍ يوم ١٠ يونيو.

قائلاً: «إنَّنى سوفَ أبقى حتَّى تنتهى الفترةُ الَّتى نتمكَّن فيها جميعًا من أن نزيل آثارَ العدوانِ، إنَّ الأمرَ كلَّه بعدَ هذهِ الفترةِ يجبُ الرُّجوع فيه إلى الشَّعب فى استفتاءٍ عامٍّ، إننى مقتنعٌ بالأسبابِ الَّتى بنيتُ فيه قرارى، وفى نفس الوقتِ، فإنَّ صوت الشَّعبِ بالنسبةِ لى أمرٌ لا يردُّ ولهذا فإنَّ القرارَ مؤجَّلٌ. إن الهزيمة لابدَّ وأن تضيفَ إلى تجربتِنا عمقًا جديدًا وأن تدفعَنا إلى نظرةٍ شاملةٍ وفاحصةٍ، على كثيرٍ من جوانب عملِنا».

كان لا يمكنُ القبولُ بالهزيمةِ ولذلكَ تم إعادةُ بناءِ القواتِ المسلحةِ، واستكمالُ ما ينقصُها من معدَّاتٍ وأسلحةٍ وكذلكَ إعادة تدريبِ الجندىِّ المصرىِّ.

بدأتْ حربُ الاستنزافِ واستمرَّت نحوَ ثلاثِ سنواتٍ، منذ عام ١٩٦٧م حتَّى عام ١٩٧٠م . وقد كانتْ هناكَ مواجهاتٌ طوالَ هذه الفترةِ بين جنودِنا والجنودِ الإسرائيليينَ، وتكبَّد العدوُّ خسائرَ فادحةً واستعادَ الجنديُّ المصريُّ ثقتهَ وقوتَه.

* * *

تُوفِّى «جمالُ عبد الناصر» فى ٢٨ سبتمبر ١٩٧٠م، وبعدها تمَّ افتتاحُ السد العالى رسميًّا عام ١٩٧١م، وتمكَّنتِ الْقوات المسلحةُ من استعادةِ سيناءَ وحقَّقتِ النَّصر على إسرائيل فى ٦ أكتوبر ١٩٧٣م.

وبقى «عبدُ الناصر» زعيمًا خالدًا، يلهمُ أجيالًا لم تُعاصرْه، وكان هناكَ كثيرونَ يحملونَ صورتَه فى ميدانِ التَّحرير فى ثورة ٢٥ يناير ٢٠١١م.